شفشاون

لابن الريحاني (١)

صروح مديدة منخفضة ، ظاهرها ابداً جديد ، صروح بيض كزهر السوسن ، ناعمة كفجر الربيع ، مزخرفة متنسة ، صروح كقصور الجن ، بنات الخيال وقصص المحال ، يسُد كفتيات الحور ، بأقواس كالنونات ، خطها قلم ساحر ، فمكنها يد عابثة ، صروح بتيجان انثنت من اعالي الحصون ، لتوح فوقها الحمائم ، وتغرد الحساسين ، صروح لفنانين مولعين ، فروا من حقائق الوجود الى حقيقة الحياة الخالدة — من الاشكال المتآخذة الى الوئام والتجانس في وحدة الجمال ، صروح خفيفة الظل فوق أرض قاسية ، تحت سماء كلها بهاء وحنان ، صروح كالعلب لاطفال الارباب ، وما هي باللعب ، ولا هي للاعبين

ولمن الصروح ؟ ألجايرة الحديد وعبيد البخار ؟ أللطامعين الوادعين الصالحين الناقصين من ذرية مباركة لا ، انسية ولا جنية ؟ أللحيوان والانسان ، للذابح والحارس من الناس ، وللناهبة المسافات ؟

حصّن فؤادك واستمع . ان هذا الصرح لسكة الحديد في محطها ، وذاك العرج لجزر تطوان ، والآخر على الهضبة الخضراء هو مخفر عسكري

هي القنون والسل بها ذوقاً ومنفعة . هي الفنون والروح العربية الاسبانية المتزاوجة المثمرة . هي الهندسة الساحرة ، الاندلسية الغرناطية ، وقد تجسمت فيها الامنية القصوى ، الناشئة من فنون الشرق والغرب ، ومن تشوقات القلوب المتعلقة بآثار الماضي المجيدة وبخرائبه الثمانة — بروح الماضي وذكراه

هي هي صروح الروح الخالدة ، وقد شيدت بيد الحمراء والزهراء ، للحديد المحدود ، وللفحم الموقود . وشيدت للجزارين يجازون الانام على الطاعة والوداعة والخير . وشيدت لحماة الامن والنظام

الصروح البيض المتوجة بتيجان الحصون ، المحصّن فيها الفن المغربي الاسباني ، تودعنا ونحن خارجون من تطوان

(١) من كتاب يؤلفه في المغرب الاقصى وقد يكون عنوانه رحلة في منطقة الحماية الاسبانية

والطريق الاسحم الصقيل ينساب بين الروابي الخضر ، المتألق ظلُّها في روض الصباح : الراقص زهرها للشمس الشارقة — ينساب ذلك الاسحم الصقيل بين تلك الروابي ، في سفوحها وثناياها ، وعلى صدرها المجلود ، وفوق جبينها الصامد لسهام الشارقة الغازية

الطريق وابناء الطريق وزينات الطريق ، يمجدها الفجر ، ذلك الساجد في سمائه ، بين الحب الفتية ، ويلمحها بسمائه الساطرة ، ويدخل على قلبها نور محرابه الدُّرِّي

الطريق وابناء الطريق — رجال البوادي يسوقون الدواب المثقلة بأحمال الارض الجوّادة — يسوقونها الى المدينة بما تنبت الارض وتثمر ، بالحطب والقمح والبقول والحبوب . وبنات البوادي يرابطنَ الشبيهة بالمظلات ، تتناعس تحتها العيون النجْل ، في سمرة الخدود ، وهنَّ ممتطيات ظهور الأُتن الوديعة الآذان ، الطائعة الصابرة المكدودة

الطريق والحركة والسكون في الطريق — سكون الفجر الوفي الازلي ، وحركة الشعوب المتقلبة الزائلة ، جيلاً بعد جيل ، منذ وطأت هذه الارض أرجل الفينيقيين ، ثم الرومان ، ثم البزنطيين ، ثم القوط والعرب والفرنجة اللاتين الى زماننا ، فرأت عين الفينيقي منذ ثلاثة آلاف سنة ما نراه نحن اليوم — هذه الوجوه السمر الجافة الاهاب ، وهذه العيون السود الناعسة ، وهذه الشمال والبرانس والشاربق ، وهذا السكون في الوجوه والعيون الحاجب للعزم والشدة والاستعزاز

بوادي المغرب من عرب وبربر ، صلة الخير بين المدينة والارياف ، بين معدة جشعة ، وقلب خاشع رشائع ، بين شهوة لا تزول ورحمة لا تحول ، بين فم يردد دوماً : هات هات ، وايد تلبي يوماً بعد يوم ، مبسوطةً غير مقبوضة ، لا تكل ولا تمل

الطريق وزينات الطريق . ومنها سيارات هذا الزمان الطامعة بالمسافات تنهبها وتخفيها ، وهي تمزج انفاسها النازية بانفاس الطبيعة الشذية ، تثير بالحقول والمروج ، وبالزهور والرياحين ، كأنها من الطريق اليابس العابس العقيم ، لا تستحق ونفة ولا نظرة ، ولا شقةً عابرة

الطريق ، طريقنا الى شفشاونَ ، بعد حبس في المدينة يومه شهرٌ وشهره دهرٌ ، حياكَ الله حياك ، وجعل الحجارة المرصوفة والأنفس المخصوفة ، فداك

الطريق والربيع الزاهي الى جانبي الطريق ، وتوقٍ على رؤوس الربى ، وتحت في الوادي الريّان ، بجوار النهر ، نهر مرتيل النائم الكسيل . أو هو نهر ورع متقشف لا تهزه نشوة الربيع ، فيسير ويدور على هواه ، هادئاً ساكناً بطيئاً ، سيرَ الخير في العالم ، ويتقبل الجزية التي تؤديها له الربى والجبال — ساقيةً هنا وسلسبيلاً هناك — يد صفراء ناحلة

الربيع وهو واحد في المغرب وفي لبنان ، طرّق هذا الشاطىء الافريقي الاسيوي ، هو واحد في فيضه واشكاله وزمانه ويحيي البلدين على اليوم — على الساعة — في التقويم ،

لا يبطيء ولا يسرع ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فيُسمع صوت الحسون ، وتُشهد طلعة الشمس في آن واحد هنا وهناك

وهي ذي النباتات الثنائية ذوات الأريج الكامن والمنتشر — الصعتر والفصعين والقندول الزاهر . وهناك الدفلى البيضاء والحمراء تميل على ضفتي النهر . وقد شاهدنا في بعض الاماكن شقائق النعمان ، والاصفر من الاقحوان

وهوذا العلم يغزو حتى هذه الاصقاع المغربية القصية . تلك الابراج من الحديد والعمد من الخشب ، هذه لأسلاك البرق ، والاخرى لأسلاك الكهرباء ، تسير جنباً الى جنب بين أشجار الزيتون البرية ، والخرنوب : عجبت لزيتونهم فلا يلقحونهُ فيثمر ويضي ، ولخرنوبهم ، فيطعمونهُ للمواشي ولا يدبّسون

وهوذا مختفر آخر من مختفر القبائل ، ومنها بجوار تطوان بنو قُرّش ؟ قرّش أم هل هي قريش ؟ يجب ان تُردَّ هذه الاسماء الى اصلها العربي . ولكن المغاربة لا يبالون بما يحل بالاصول . وان هم داووها فبالاهمال ، فيطول يومها ، ولا يحول اعتلالها

وقد يخترعون اصولاً غريبة في الدين والتفسير فيتكثر التوحيد لاهنه ، او ينقع بقناع الصوفية ، ويؤزر الزوايا على المساجد ، والمرابطين على العلماء . هي الفتوحات والاقانيم القاهرة . وهي العقائد في قلوب الفاتحين ، تنتقل الى حقائبهم ، تتأثر بالمناخ والمحيط ، وبتقاليد المغلوبين انفسهم بعُدَ الاسلام عن مهده ، فسادت في أندلسيه الفلسفة ، وكادت تتغلب عليه ، وسادت في مغربه روح القبائل البربر ، فتح ابوابه لتقاليدهم وخرافاتهم الوثنية — لأوهامهم وسحرهم وتعاويذهم — بعد ان أخفق في مقاومتها وعجز عن التغلب عليها

هذه الكلمة جرّها مختفر بني قُرّش — قريش ؟ — ونحن ندنو من مدينة هي معقل الدين والعلوم الدينية ، او كانت . فقد قيل لنا انها تجهف المغرب . وانها لسبب آخر نابلوس المغرب . وقد يكون التشبيه مثل الاسماء المشوهة بالتحريف ، فتبحث في تجف المغرب عن المدارس والمدارس فيها فلا تجدها — وقد تجد في نابلوس المغرب بعض اليهود . فالتشويه في التشبيه مستفيض كما هو في الاسماء ، ومثل كذلك

ولكن في الاسماء الكثير من الفصيح السليم ، وفيها ما يسوّغهُ الاصل البربري . فقد ذكرت المختفر وهو في اصطلاحهم مرتّب . وترب المرتب المدشر اي القرية . فالمرتب مقبول مكرّم في قواميسنا العربية ، والمدشر مرفوض مجهول ، الاّ في القواميس البربرية ، وهي غير موجودة . ولا أحد من اهل البلاد العرب او البربر ، يستطيع ان يرد اللفظة الى اصلها اللغوي فيكتشف سرّها

اذن نقول المدشر وقد مررنا بمداشر عدة ، وما شاهدنا غير نموذج منها ، كوخ او كوخين

بجوار المرقب ، والنموذج طبق الاصل ، مبني من القش والطين مشكل هرمي . اما المنشر فهو مختبىء في الوادي او في ثنايا الروابي

وهاك شفشاون مجموعة ظلال على الافق المشرق . وهناك النهر في ناحية غير تلك التي كان رفيقنا فيها . فسألت الرفيق الفريد البناني ، الذي تعلم جغرافية المنطقة بالاسفار المكررة في الوادي والحواضر : كيف انتقل النهر من يميننا الى يسارنا ، وسبقنا فأصبح أمامنا ؟ فعلمت ان نهر مرتيل لا يزال مكانه وراءنا ، وقد اختفى في أحد الاودية المنحدرة من منبعه . أما هذا الذي أمامنا فهو نهر سيبُّف اللاو ، والسيف ساحل للوادي — في القاموس كما هو للبحر

اننا اذن في رأس وادي اللاو ، وقد كتب لنا التعرف اليه ، من رأسه الى قدميه. وسنشهد هناك العجائب المبهجة — وستشهدها معنا ، ايها القارىء الصبور ، ان ثبتَّ في الصبر والنيار. فهوذا الآن سيب اللاو ، وهوذا نهر السيف ، المنحدر من جبل شفشاون في احد فرعيه ، ومن جبل باب تازي في الفرع الآخر . فجبل شفشاون أمامنا هناك ، على الأفق الشرقي ، ولا يزال الثلج أثر في اعاليه . والى جانبه جبل القلعة ، ووراءه وراء ذلك الافق المشرق ، باب تازي وجاهها

ان نهر السيف لأنشط من نهر مرتيل : فيُرى انهُ يجري وانهُ يسرع في جريه ، ويفهقه في انحداره . ترى ضحكته الفضية وتسمع . وان لهُ مرحلة يجتازها من نبعه ، فيقف القرعان متحدين طوعاً للعلم ، وقد شيد لها مركزاً قريباً من شفشاون ، وفيه الادوات والمحركات لاستثمار تواها . نهر السيف ، وقد حشدت قواه لتوليد الكهرباء . فرأينا أبراجها في الطريق ، وهي تحمل النور الى المدن — الى شفشاون وتطوان والعرائش ، والى القصر الكبير والقصر الصغير حتى والى سبتة وطنجة

دنونا من البساتين ، وقد نورت اشجارها ، وفاح طيبها ، وعدنا الى الصروح ، الصروح البيض المتوجة بتيجان الحصون ، الحاملة خارجاً وداخلاً رسالة الحمراء في الهندسة الفرناطية شكلاً ومعنىً — جمعاً وتفصيلاً — في النقش والتلوين ، وفي التلحين ، وفي الغناء ، وان أجمل الالحان في هذا الزخرف ، وفي هذه الألوان . هي الصروح العربية الاسبانية ، الفرناطية المغربية . هذا ثكنة للجيش — وهذا — في وسط جنينة زاهرة بالقرنفل والورد والنرجس والياسمين — مركز المراقبة ، وذلك الى جانبه مركز الخفر الشريف . تحيا في الاول اسبانية وقد أقامت للحماية مراقبات يديرها ابناء حكومتها من عسكريين ومدنيين . وهذا مرتب الناحية ، ندخل فاذا نحن في شبه «حمراء» صغيرة منشئة . فتبدو المكاتب فيها كوائد الصيارفة في المعابد . وهذا المراقب الضابط الشاب ، في جزمة لامعة وثوب أصفر عسكري ، انهُ لمن المتناقضات

ولكنَّ في شفشاون صرحاً اندلسيًّا واحداً لا تناقض فيه — هو الفندق الجديد . فان

كنت من جابوا الاقطار القاصية والدانية ، وشاهدوا في المدن الحالة والبديعة كل عجيب طريف ، فصحت يابس الشعور ، لا يهيج يهجك ، ولا عجيب يعجبك ، فطو هذه الصفحة ودونك غيرها . وان كان لا يزال لوح نفسك طريًا تطبع فيه الآيات الطبيعية والفنية ، فتزيدك علماً وحبوراً ، فواصل ما انت فيه الآن ، ولا تخش الخيبة أو الملل

ما هذا المنزل القائم بين الجبال ، على هامش المدينة ، بزل ضخم فخم عظيم ، ولا هو في ظاهره على شيء من النادر والممتاز في الجمال . ولكن في داخله السحر الساحر ينتقلك بلحظة عين الى الاندلس — اندلس الغرب . ذلك السحر هو في روعة الاستقبال — في النقش والزخرف والالوان ، على الجدران والسُّدد ، وفي السقف ، وتحت قدميك . هات القهوة يا غلام

ان كتاب هذا السحر لمن « حزام » بني الاحمر الخالدة — يلمحتسر — بلهجة المغرب. وأدوات السحر من عامل البلاط الزليجي بأشبيلية ، وأستاذ السحر من هذه البلاد المغربية والسحر الحلال ، حاكهُ في هذه الرسوم الهندسية بخطوطها الخضر والصفر والحمر ، وفي هذه الفسيفساء — الارابسكيه — السوداء الزرقاء البنيه ، تتجلى في السقف ، وترقص على الجدران ، وحول السد ، وعند قدميك ! — هات الحمر يا ولد

أنا في غرناطة ، في المضيف السلطاني بالقصبة !

هو السحر القديم . وفي الطابق الثاني السحر الحديث الجديد . في الطابق الثاني تنتقل انتقالاً آخر سحريًا . من غرناطة الى باريس او نيويورك — من الفن الساحر المتعب للاعصاب الى الصناعة الموفورة الراحة والرقاء — من الترف الذهني والباطني الى الترف الجسماني — من الكرسي الخشب المطعّم القاسي الى الكرسي المتجدد الوثير — من الالوان المثيرة للافراح والاشجان ، الى اللون الواحد الساكن المكن ، المزوج بماء الحياة والاطمئنان

والى جانب كل غرفة من غرف النوم لهيم هذه الدنيا — حمام مجهز بجميع أسباب الرفاه والبهجة ، بأحواضه الكبيرة والصغيرة ، بزليجه الاشبيلي ، بأنواره الكهربائية ، بمواسيره الخفية الحاملة اليك الماءين الحار والبارد ... يا غلام ، أين المدلكة ؟

أيها القارىء العزيز ، ان كنت ممن شاهدوا عجائب الدنيا في الشرق والغرب ، وما زلت تهتز دهشاً وطرباً لكل مشهد غريب عجيب ، وعند كل مظهر من مظاهر الجمال والاناقة ، فانك لمن الفائزين ، وانك لغني السعيد

وقفنا في طنف من أطناف النزل نمتع النظر بالمشهد الطبيعي المتمم للجمال الهندسي والفني . فسألت معاون المراقب الذي كان رفيقنا ودليلنا ، عن بيت يبرز على رأس احدى الهضبات في الجانب الآخر من الوادي ، فقال : هو مسجد . — ومن يقصده للصلاة وهو بعيد عن

المدينة ؟ — قلما يُقتصد . — وماذا بي هناك ؟ — بناء احد المراقبين ليزين به تلك الربوة

الزينة والزخرف — الجمال اللطيف في الهندسة والصناعة والفن ، وفي الحياة العاطفية ! ان الانسان لأشد نزعة اليها ، وأبلغ شغفاً بها ، من العرب . بل هي الصلة المتينة بين الشعبين — تنحصر اليوم في الفن الهندسي والثقافة ، وستشمل غداً — دع انتبؤ للانبياء

خرجنا من النزل نمشي الى الساحة الكبرى ، فاذا هي تغص بالناس من المدينة والمداشر المجاورة لها . هو يوم السوق التي تقام فيها كل اسبوع ، فتحتلها النساء والرجال للمتاجرة ، فتتربع المرأة على الارض ، ويجلس الرجل القرفصاء الى جانب ما هو معروض للبيع من البقول والثمار والحبوب ، ومن الأقمشة والأحذية والبرانس ، ومن مواعين الفخار والنحاس — من الدبُّوس — كما يقول « العطار » اللبناني — الى جهاز العروس — سوق عامرة بالجماهير من بدو وحضر ، وبما فيها مبعثر على الارض للبيع والشراء فتم الصفقات — وهذا ما أدهشني — باليسير من الكلام ، بالصوت الخافت — لا صياح ، ولا ضوضاء ، ولا ازدحام

قومٌ متمدنون ، يجلسون على الارض ويتاجرون . فمن هم ياترى ؟ هل هم العرب ؟ هل هم البربر ؟ ام هل هم من الجنسين وقد تخالطا وتشابها ، فتحسب العربي بربريًّا والبربري من العرب العرباء . انهم ابيض الوجوه ، يغلب في النساء الحسن ، وفي الرجال الهيبة وشدة البأس

وهذه اللهجة العربية لهجتهم ، لقد أدهشتني الدهشة الكبرى ، فأثارت بي كوامن الذكرى . انها لأليفة الأذن بسرعتها ووقفاتها وغناتها ، وبما فيها من تحت وادماج وتسكين لا يجيزه احد من النحويين الملتحين أو المرد ، المحافظين أو المجددين . حيّا كلّه = حياك الله . لاسْتَلِيك = لا بأس عليك

اللهجة والوجوه ، تنقلني النقلة السريعة البعيدة — تنقلني الى اليمن . هنالك في الأعالي في برع وثمار وضحاء — رأيت أمثال هذه السحن البيض ، وهنالك سمعت مثل هذه اللهجة الغناء ذات التقزات والوثبات والوقفات والمدات

وهذه السوق بقناطرها الواطئة ومخازنها الصغيرة ، وقد تربع التجار في دكاتها على حصير أو فراش أو سجادة ، هذه السوق بدرجاتها ومنعرجاتها ، وبروائحها الشبيهة بالبخور الهندي والبهار والكمون ، وقد سحقت في الفهر الواحد ومزجت بنية من بوقفة العطار — هذه السوق بجوها وروائحها تنقلني الى اليمن

وهذه البيوت ، لولا قرميد سطوحها ، بناية . وهذه المدرسة لصبيان القرآن ، يتلقون قراءته بالالواح المكتوبة لا بالكتاب المطبوع — اليمن . وهذه الأنوال — اليمن . وهذا الترقُّص الشفشاوني — اليمن

أقف عند هذا ، فلا تطلنا التشابيه والاستعارات . ان لشفشاون ، على ما ذكرت صفاتها الخاصة ، رأسها النظافة في ساحاتها ، وفي أسواقها المدرَّجة ، وفي أهلها ، وفي بيوتها

وقف بنا الرفيق الدليل أمام مدرسة دينية عالية — هي مدرسة شفشاون لتعليم القرآن والفقه ، فدخلنا ، فاذا نحن في صحن فارغ نظيف كقلب البادية ، لولا شجرة الليمون وانشاذروان العامت ، لا ماء فيه . وحول الصحن المدرسة بطابقين فيهما غرف التدريس والاكل والنوم لكل طالب غرفة صغيرة فيها سرير وخزانة وطاولة للكتابة . كل ما فيها بحالة ، وكل ما فيها نظيف

ولكن الرفيق وبخ المدير لان الرواق أمام الباب لم يكنس في ذلك اليوم — فاعتذر المدير وراح ينادي الخادم

ثم قال رفيقنا : الحكومة تقوم بنفقات هذه المدرسة وتدفع رواتب المعلمين والخدم . نطلب أن نطالبهم بالواجب عليهم

ليس في اليمن مثل هذه المواظبة على النظافة ، وليست أنوال اليمن كأنوال شفشاون وان كانت في البلدين يدوية . فتلك شبيهة بأنوال لبنان الضيقة ، عرض نسيجها لا يتجاوز الذراع الواحدة ، فيشغل كل عامل نولاً واحداً

أما أنوال شفشاون ففي عريضة وسع نسيجها متر ونصف متر ، فيشغل النولَ الواحد عاملان ، كلاهما يمكوكين . الخيط في الواحد مفتول وفي الآخر محلول ، فيجيء النسيج متيناً خشناً مزغباً . ولا يصبغ كما في اليمن . بل ينسج من صوف الغنم ويستعمل بلونه الطبيعي للمشالح والبرانس . وأمام بيت الحائك تينة أو مشمشة ، وعلى سطحه عريشة من عرائش العنب — لبنان

خرجنا من المدينة ونحن نواصل السير في بقعة من الارض جبلية لغاية . وهذا نبع النهر نهر سيف اللاّو — وقل نهر الكلب عند نبعه ، أو نهر ادونيس في مجده بأفقه — يتدفق من بين الصخور في ضفتي زانته الطبيعة بشجيرات من الزيتون البري والبطم والسنديان والى جوانب المياه تتزاحم الدفلى الزاهرة

لا بدَّ للدليل من قصة يقصها عليك — فقد اخبرنا أن السلطان الحسن ، والد السلاطين الثلاثة ، عبد العزيز وعبد الحفيظ ويوسف ، زار هذا المكان ونصب خيامه حيث كنا واقفين وان الشمس تشرق في ايام الجمع والاعياد على سرب من النساء يقصدن النبع للنزهة ، فيلمعنَ ويتسلينَ في هذه المياه بين الصخور

عدنا من النبع في طريق آخر بين البساتين المسيجة بالصبر ، المزدانة جوانبها بأقمار البلسان ، فكنا نسمع خرير الماء ، ولا نرى غير بريق متهُ هنا وهناك بين اشجار اللوز والتين ثم يظهر شلالاً عند طاحون ، او ساقية في بستان ، فيذكرنا دوماً بلبنان . هي ساعة في بقعة

من الارض طيبة مثمرة — وألذ ثمارها الذكرى والخيال . فمن النزل الى المدينة الى النبع انتقلنا ثلاثة انتقالات

شفشاون[1] بلدة حديثة العهد ، أسست سنة ١٤٧٠ ، عند سفح الجبل الحامل اليوم اسمها على حضبات هي كالدرج الى رأس النبع . وفي هذا الدرج الطبيعي الاسواق المبددة ، والادراج المرصوفة بالحجارة . وقد صقلتها ارجل الناس فأمست مثل لعالم المسحاء الملساء ، مزلقة للاحذية الفرنجية . وفي شفشاون مزالق اخرى — لا للفرنجة بل للعلماء من ابنائها . فهم يذكرون الماضي، يوم كانت مثل التجنب مدينة العلوم والاسرار الدينية، فيطعمون بالتمم الخالدة ، ولا يتقون ، فيقعون بالزائل منها — يزلقون . ولكنهم لا يؤلفون الكتب ليسوّغوا المزالق ويشرحوها . وهذه من حسناتهم . ومنها انهم يزدرون الجهل وأهله حتى الاهمال ، فيسمون الاساطير تردد ولا يبالون

فمن ذا الذي أشرف على بناء شفشاون ؟ هو ولي من الاولياء يدعى علي بن راشد = راشد (يلفظ الشفشاوني الراء كما يلفظها ابن باجيس = باريس) ولولا ان راشد مزار عند مدخل المدينة ، وكرامات في الحياة وفي الممات . فهو الذي امتشق حسامه وضرب به الصخرة في سفح الجبل فتفجرت منها مياه النهر

وفي شفشاون اليوم ثمانية آلاف نفس نزح أجداد اكثرهم من الاندلس قبل سقوط غرناطة وبعده . ومن هذه الثمانية الآلاف الفٌ او مائةٌ او عشرةٌ — لست أعلم بالتحقيق — يتكّون في كرامات الولي المذكور وينكرون أعجوبة سيفه المتحدر من سلالة عصا موسى

وفي شفشاون مزالق لليهود . فيوم دخلت عساكر اسبانية المدينة سنة ١٩٢٠ ، رحبت بهم الجالية الاسرائيلية ، فابيضت وجوه واسودت وجوه . وما كان البيّضون مفلحين فعددهم اليوم أقل مما كان منذ عشرين سنة . وقد تصير شفشاون شبيهةً كل الشبه بنابلوس

اما حسنة حسناتها بعد النظافة والانوار ومعمل الزاربي والمدارس المدنية والدينية، حسنة هذه الحسنات مدرسة البنات ومديرتها السيدة رحمة المدني حرم عبد السلام الاندلسي . والسيدة رحمة الريفية المولد ، المتعلمة بطنجة ، المحسنة اللغتين الإنكليزية والفرنسية ، هي اول امرأة تعلم وتكتب في هذه المنطقة من المغرب الاقصى . وقد تصير وليّةً — طال عمرها — فتدفن الى جنب مولى شفشاون علي بن راشد

تقسم هذه البلدة القدسية الى خمس حومات اي احياء هي حومة رأس الماء ، القريبة من

(١) وتختصر فيقال شاون وتكتب بالاسبانية Xauen وهي على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من تطوان وتعلو ستمائة متر عن سطح البحر

التبع ، وحومة الخرازين (الاسكافيين) وحومة ريف الاندلس التي سكنها النازحون من اسبانيا ، وحومة سيدي بنه كانت تقام سوق بها قديماً ، وحومة ريف الصبانين اي الغسالين

سألت الدليل : وفي أية الحومات يسكن اليهود ؟ فأجاب : في البقعة حفنة منهم منثورة على حواشي الحومات

ليس في شفشاون من الآثار التاريخية غير القلعة التي بناها البرتغاليون . القائمة في الناحية الجنوبية الشرقية من الساحة الكبرى . في هذه القلعة تحصن الريسوني يوم كان يحارب الاسبان ، وقال كلمته المأثورة يخاطب القبائل : هذه بلادي وأنتم أهلي ، فلا خوف على البلاد ما دمت حيًّا ، ولكنها ذاهبة بعد موتي

وكانت هذه القلعة مركزاً لعبد الكريم بعد الريسوني ، فحدث بين الاثنين ما سنذكره مفصلاً في موضعه . وما كان القدر ليرحم المجاهد الاول ولا المجاهد الثاني . قال بطل الريف ، البطل الشريف : تعال شاركنا في الجهاد . فأبى وكان الشريف يومئذ مريضاً في بيته بتزروت ، ومتحركاً مع ذلك في سياسته بين القبائل المتقلبة ، والدسائس المتقلبة . ومن رجال عبد الكريم الذين حملوا غصن الزيتون يومئذ الى الشريف الريسوني ، ثم السيف عليه ، السي يزيد بن صالح قائد قبيلة بني يزناسن ، وباشا شفشاون الحالي

زرنا الباشا في بيته ، فاستزريت اللقب لما شاهدت صاحبه . وما محل الباشاوية من هذه الطلعة البدوية الرائعة ؟ لقد خط الدهر في وجه ابن صالح سفر المثابرات والغزوات والشدات فأجاد ، وأيدته بغية سوداء بيضاء كأن غبار المعارك لا يزال لاصقاً بها . وأبدت الدهر عينان غائرتان لا تزال النار بادية في رمادها . وأيد الدهر فمٌ في سكوته هول ، وفي ابتسامه أمن واطمئنان

الباشا يزيد ! حاشا وكلاّ . السي يزيد ! بئست الالقاب المدنية والحزنية . متى كان الـ«باشا» من تراب هذا المغرب ؟ وهل لبني عثمان اثر غير هنا وهناك في شرقنا العربي ؟ أريد الجواب من تجيل باشا الباشوات . أريد الجواب من محجم باشا سيد . لا يا اخي . لا تضيع الوقت في السؤال والجواب . ان هذه الالقاب وأعطيتها — سعادة ، فخامة ، معالي — لمن متكرات الدولة البائدة . ولو كانت من غير المتكرات فانها تستتبع حينما تضاف الى عجيل او محجم او فهد او هزلول او يزيد . أما السامي — نصف سيد أو أقل — فهو أقبح وأنكر . اذن نقول الشيخ وليس أشرف منهُ لقباً في البوادي والحواضر

زرنا الشيخ يزيد بن صالح — أرأيت كيف تتجانس الاسماء والالقاب ؟ — زرنا الشيخ يزيد في بيته فاستقبلنا في الباب ، وصعد أمامنا في درج ضيق عالي الدرجات — ذكرني باليمن — الى ردهة الاستقبال ، المشرفة بألوان فرشها ، على الأرض والدواوين والجدران ، اشراق ،

ابتسامه . وكان في اكرامه لنا عربيًّا فحًّا ، خُلُقاً وتقليداً . فجاء الخادم ، عملوق من سود السودان ، بقماقم خضر وصفر قدم قهوةً لكل زائر ، فصبَّ منه الزهر على الرؤوس والأيدي فسحت الوجوه وسُبِّح بحمد الله . ثم جاء العبد الآخر بمبخرة حُرق فيها عود الند ، فنشقنا منها وبخرنا الصدور ، وسبحنا بحمد الله

ثم جاء الخادمان بالد « أتاي المتنع » وبأطباق عليها اهرام من الحلوى ، فشربنا الشاي في كؤوس من الزجاج كأننا في الحجاز ، وأكلنا من تلك المقرنات والمربعات المسلة ، وما سبحنا بحمد الله ، وهو هاهنا أولى بالتسبيح . ان لتقاليد تقاليد تقيدها

وكنا قد علمنا ان مضيفنا ممن حجوا في العام السابق ، فسألناه رأيه في ابن سعود فقال بأسلوبه الوجيز : عربي كريم وحاكم عادل . ثم اخبرنا انهُ دعي لمأدبة أقامها الملك لبعض الحجاج وانهُ يحتفظ ببرقية الدعوة

وفي مساء ذلك اليوم بتطوان ، في بيت عبد الخالق الطريس ، اجتمعنا بغيره ممن حجوا في ذلك العام فأثنوا على عبد العزيز « العربي الكبير» و«الياسي القدير» و «الحاكم العادل » وما تعرضوا بخير او شرٍّ لمذهبه . انما في المغرب السني الشافعي . ولكن المذاهب لا تحول في هذه الايام دون الاقرار بالفضل ، ولا تتنافى في المروءة

طال الحديث ، وطابت فيه المقارنة . فلنختمه بشيء منها يخص بالبيوت ، وهي اجمالاً على شكلين بيت الشيخ يزيد بن صالح مثال الشكل الواحد ، والبيوت الحديثة في تطوان من الشكل الآخر . الاول — واكثر بيوت تطوان القديمة منه — عربي مبنىً ومعنىً ، عربي النطق والمزاج ، بيت صغير متواضع ، يتوارى ولا يتعالى . وبيت الاستاذ الطريس مثلاً هو عربي مغربي ، عربي الشكل مغربي المزاج منفسح منشرح وراء جداره العالي الأصمّ فيقوم بطابقيه حول صحن رحب ، مفروشة ارضه ، ومصفحةٌ جدرانه ، بالبلاط الزليجي . وفيه كما في بيت الاستاذ محمد بنونه الذي نزل به الامير شكيب ارسلان يوم زار تطوان ردهة استقبال مفروشة بالفرش الاوربي ، مغرقة في التقليد ، واخرى وطنية ، مغربية الشكل والذوق ، مغربية الروح والمظهر . وهي على الاجمال في الطابق الاول ، في صدر الصحن ، طويلة ضيقة ، مشطور طولها شطرين ، يفصل بينهما عُمُدٌ بأقواس ، وبدرجة ترفع الارض الواحدة عن مستوى الاخرى

وفي صدر هذه الردهة ديوان منخفض عريض طويل ، مدى الحائط ، حافل بالفُرش الوثيرة . المغطاة بالسجاد وبالوسائد الباهرة الالوان — مزاج المغرب . والى جانبي هذا الديوان في طرفي الردهة أي زاويتها ، سريران عاليان . اوسدتان . او عرشان . قد يستطيع الرياضي الحاذق الجوائز في القفز ان يقفز من الارض الى ذلك العرش قفزةً واحدة . ولا يستطيع

أمثالنا — أستغفر قارئي الرياضي — ان يدرك ذلك المزاج درج بصدده

كثيراً ما فكرت . قبل ان اقدمت على السؤال . في هذا الشيء المفخّم المتحشّم بالفخامة . المكدّس بالفُرش المصفّف بالوسائد المرفّه بالاطلس والحرير . البادي بكثرة المزركشة كالعروس المجلوة . كثيراً ما فكرت في ماهيته — مهته — سبب وجوده . فهل هو من الاثاث ام من توافله . هل هو للزينة ام للاستعمال ؟

وهل يجوز في الحالين ، لغير العروسين ... اذن هو سرير الليلة الاولى . فكرت ، أقول ، ثم فكرت . وقد يُستعمل بضع ليالٍ بعدها ، وقد يُسخر لشهر العسل ، بأجمعه ، ثم يترك هناك لعسل الذكرى ، وان حامت عليه الذباب . فكرت ففكرت ، ثم تشجعت فسألت ، فعلمت انهُ لأهل البيت في الايام العادية ، وللضيف في الاعياد

فشرحها رب البيت قائلاً : ويوم الضيافة عندنا عيدٌ . وكما انهم يستعملون هذه المدة الملكية للنوم ، فهم يستعملون الردهة الفخمة للمآدب ، فيكرمون فيها الضيف أكرامين في مأكله ومنامه

جلسنا حلقة حول طبق من النحاس ، على طريقتنا البدائية في القرن الماضي ، وزلطحنا الزاد بالايدي ، على الطريقة العربية في شبه الجزيرة اليوم . غير ان الضيف لا يشارك ضيوفه في الاكل بل يخدمهم وهو واقف يشرف على الخدم

وكان الخدم تلك الليلة من شبان كتائب حزب الاصلاح في أثوابهم — قمصانهم — الرسمية وكان الحديث في تطوان وتاريخها . فأخبرني جاري ان العلامة المفضال الحاج احمد الرهوني — الرئيس السابق لمجلس التعليم الاسلامي الاعلى — كتب تاريخ تطوان في عشرة مجلدات — غير مطبوعة — طبعاً . وقد أهدى النسخة الخطية الى الاستاذ الطريس يوم زفافه

تاريخ تطوان في عشرة مجلدات ! يا ساتر يا معين ! فكيف السبيل الى الانتفاع بعلم الشيخ الرهوني ؟ خطر لي خاطر اذكره الآن ، وأسجل في ختام هذا الفصل شوقي وشكواي

اني أشكو مضيفي الكريم صاحب النسخة الخطية . لا لانه طمعت بها فأمسكت — لا والله — فقد أعربت عن رغبتي بنشر نموذج منها ، فتعلم دوائر الادب العربي بالكنز التاريخي ، فتأبى ان يبقى كنزاً دفيناً ، وهدية عرس . بل رغبت في نشر تاريخ تطوان بالشكل الملائم ليعد قراء هذا الزمان الضنين . فسألت عبد الخالق أن يأمر أحد كتابه بتلخيص كل مجلد في صفحة واحدة ، فأضعها أنا في بوتقتي وأغليها ، ثم اقدم لقراء هذا الكتاب خلاصة الخلاصة . فأجاب بالايجاب . أي انهُ وعد بأن يفعل

وكررت الطلب فكرر الوعد . وتكرر الوعد فتكرر الطلب . فعلمت وتيقنت ان الوعود في المغرب مثلها في هذا الشرق العربي ، وانا والمغاربة أخوان ، حقاً أخوان